

في الحب أيضا

وجواب بعض المسائل

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

يظهر أني لم أحسن البيان فيما كتبت عن الحب والوقت الذي تكون فيه النفس أحسن تهيؤاً له، فقد تلقيت رسائل من هنا وهناك، ومن مصر وغيرها من أقطار العرب، جملة ما استخلصته منها أني حمار طويل الأذنين، وأن لي نهيقاً عالياً ولكنه نهيق لا أكثر، وقد أكون كذلك فما أدري، ولو أني عرفت نفسي على حقيقتها لكان هذا حسي. وعزائي، إذا كنت هذا، قول رصيفي الفاضل ابن الرومي:

« في طبع ملائكي لديه عازف صادف عن الإطراب أو حمارية فقذار حظي شعبة عنده بلا إلتعاب فين الملائكية والحمارية هذه الجامعة - إن الملائكية تغري بالعزوف والزهد ترفعاً أو استنكافاً، أو لا أدري لماذا، فما ارتقيت قط إلى هذه المرتبة، وإن الحمارية تؤدي أيضاً إلى الزهد وإن كان هذا منها عن نقص الإدراك وعدم الشعور بالحاجة. ولا تعني الأسباب، وإنما تعني النتيجة وهي كما ترى واحدة والحمد لله، ولقد أطلت النظر إلى وجهي في المرأة لما وردتني هذه الرسائل ورفعت يدي إلى أذني أتحسسها ثم قلت لنفسي إن الحمارية طبيعية لا صورة، وارتددت عن المرأة ورأسي مثني على صدري وأذناي مسترخيتان - مجازاً.

وقال أحد الأفاضل الذين كتبوا إلي، إنني لو قضيت يوماً على شاطئ البحر في الاسكندرية لأدركت أن الحب يحجى في وقت النشاط الجسم لا الفتور كما زعمت، واعترف لي غير واحد أنهم أحبوا على الريق وذكر لي أحدهم أنه كان يلتقي صاحبه كل صباح فأحبها، وقال ثان أنه سمع صوتاً في الصباح فتخيل إليه أنه يعرفه، فلما رآها عرف أن ذاكرته لم تخنه، وكان أن أحب ذات الصوت الذي أيقظه من النوم، ولكن الله لم يكتب له الفوز بها. وذو ثالث أن المرأة تزين في كل

وقت - في البيت وخارج البيت الخ الخ - فإني إلى الإطالة حاجة لهذا قلت إنني لم أحسن البيان، فما أردت أن أعين ساعة معلومة للحب في الصباح أو الظهر أو العصر أو الليل، وإنما أردت أن أبين أن الحب - ككل مرض - تكون فرصته حين يكون الجسم متعباً قليلاً وإن كان المرء لا يدرك ذلك ولا يفتن إليه. وهذا التعب الخفيف لا وقت له، وما أكثر ما أصبحت برأس مصدع على الرغم من النوم ساعات طويلة فأضحك وأقول لزوجتي: يا امرأة، هل رأيت أحداً قبلي يفسر على الأسبرين؟، فتسألني: وأبك حاجة إلى الأسبرين؟، فأقول: نعم بي حاجة إليه... إلى صيدلية كاملة من الأسبرين... ولكنني سأحاول الاستغناء عنه.. إنما أردت أن أبين لك أن زوجك أعجوبة.. الناس غيري يصبحون وريقهم يحجر على القول المدبس والبيض والقشدة واللبن والشاي والمربيات وما إلى ذلك، أما زوجك المحترم فلا يخطر على باله شيء من ذلك كل همه قرص من الأسبرين يعفيه من وقع هذه القزوس التي تحطم رأسه،

فتقول: «الذنب لك... من قال لك افعل ما فعلت البارحة؟»، فأقول: «يا ستي إن المهم الآن هو التسكين وبعد ذلك يصح أن يحجى دور الحساب... ثم إنني لا أذكر ماذا كنت أصنع البارحة... كلا... لا يحتلج في ذاكرتي شيء...» وأما صاحبنا الذي كان يرى فتاته كل صباح فأحبها، فأقول له إن هذا ليس من الحب على الريق وقد وقع لي ما وقع له، أيام كنت تلميذاً في المدرسة الخديوية، وكان يبنى في البغالة، وطريق إلى المدرسة من درب الجماميز، وكنت أرى في كل صباح فتاة على وجهها النقاب الأبيض وحولها ذلك الازار الأسود - وكان هذا هو اللباس الشائع في ذلك الزمان - ومعها خادما يحمل لها كتبها ويتبعها ويحرسها، وهي ذاهبة إلى المدرسة السنية، وعائدة منها إلى البيت فكنا نلتقي كل يوم، واستماجت وجهها، وأعجبني قدها، فكنت أتعهد أن أقف على أول الطريق حتى أراها مقبلة وتكرر ذلك فصار عادة.

ومضت سنوات طويلة وأصبحت مدرساً، وإنني لراكب مرة إلى الجزيرة وإذا بي أرى أماً فتاة القديمة، ومعها طفلان

ففرقتها ، فما تغيرت عن العهد بها ، ونظرت حولي فلم أر أحداً معها سوى هذين الطفلين فتشجعت وقلت لها : اسمحي لي ..
إننا صديقان قديمان إذا كانت ذا كرتك كذا كرتي .. هل تذكرين هذا الوجه الدميم الذي كنت لا أخجل أن ألقاك به كل صباح في شارع درب الحمامين وأنت ذاهبة إلى المدرسة ؟
فابتسمت وقالت : أظن أني أذكره ..

قلت — ويداي على طفليها — : وهذان ... المحروسان أحما اللذان كان يمكن أن يكونا ولدي ؟ ..

فنهمت وهزت رأسها أن نعم ، فقلت : وتسمحين لي أن أقبلهما ، إذ كنت لا أستطيع أن أقبل غيرهما ؟
فهزت رأسها مرة أخرى ، فقبلتهما وقلت كالمعتذر :
« اذكرى أنهما كان يمكن أن يكونا لي .. »

وقصت على قصة بحجية ، فقالت : إن جاراً لها أحبها وإن أباه أبى أن يزوجه قبل أن يفرغ من المدرسة ، فحاول أن يتصل بها فلم يوفق ، فاتحرج ، فسألها : أين كنت تسكنين ؟
فذكرت لي اسم الشارع والحارة ، فاذا الذي اتحرج قريب لي !
وقلت لها : أما أنا وأنت فلم ننتحر ... آثرنا أن نتزوج ...
أظن أن الأمرين سيان ...

فأنا أيضاً أحببت في الصباح ، كما أحب الفاضل الذي كتب لي ، ولكن الحب لم يكن على الريق بل كان بتأثير العادة وفعلها .
وصاحبنا الذي سمع الصوت في الصباح فتذكره — هذا أيضاً لم يحب على الريق وإنما استيقظت في نفسه ذكرى .
ولو كانت هذه أول مرة يسمع فيها الصوت الخلو لاستغرب ولكان قصاره أن يستعذبه وأن يشاق أن يرى صاحبه ، ولما منعه ذلك أن يتناب وتتمطي ويشتهي أن يعاوده النوم .
بقيت الزينة وأظن أني قلت إن المرأة تحب أن تؤكد جمالها وتبرز مفاتها بالزينة ، وأنها لا تستطيع أن تهمل زينتها حين تخرج في أي وقت . فلا خلاف بيني وبين الناقد الفاضل فما أنكرت أن المرأة تطلب الزينة ، لأن طبيعتها تقضي عليها بذلك حتى ولو كان الرجال لا يرتاحون إلى هذه المساحيق المختلفة الألوان . ولو ظلمت تنهي المرأة عن ذلك طول العمر لما انتهت إلا إذا كانت هي تزهد في المحسنات من تلقاء نفسها أو تضطر إلى الزهد لمرض جلدي أو نحوه . وما أكثر من

قلت لهن : « أين منديلك ؟ » فتخرجه وتربنيه وتسألني : « ماذا تريد أن تصنع به ؟ » فأقول : « لست أحب أن أرى فك الجميل كالطامة المشقوقة ، فهاتي المنديل لأمسح هذا الأحمر ، فتأني وتقاوم ، فألح عليها وأقول : « ثم إن هناك داعياً آخر هو أن هذا الأحمر يحول دون التقييل ، فيكون هذا مغرباً لها بالأصرار على ترك الأحمر على شفيتها ، على حين كنت أظن — لغروري — أني زهدتها فيه .. »

وأحمد الله الذي أعفاني وأراحني من سخافة المساحيق ، فإن زوجتي لا تتخذها ، فليس في بيتي ذرة من الأحمر أو الأبيض . ومن القواعد المقررة عندنا أن على من تزورنا من قريباتنا أو من هن في حكمهن لتقضى يوماً أو أياماً معنا ، أن تيجي معها بمساحيقها ، فلن تجد حتى ولا ما يُنقَضُ على الوجه بعد حلالة الذقن . وأحسب أن زوجتي اطمأنت إلى عجز فريستها عن النجاة فهي لا تعني الآن بشيء من هذه المزيّنات ..

ولست مجنوناً حتى أقف على شاطئ البحر وأنظر إلى المتيات الناهدات ، الرشيقات ، المشوقات ، وهن يخرجن من الماء وقد لصق بأبدانهن القليل الذي عليها ، فأنى محتاج إلى عقلي كله . ولكنني أحسب الفاضل الذي كتب لي يدعوني إلى ذلك ، يدرك أن الأمر هنا أشبه بأن يكون أمر اشتباه ، لا حب ، وخلق بالمرء وهو ينظر إلى هذه الفتنة المجتمعة ، أن تدرك الحيرة ، وأن يزوغ بصره ، فلا يعود يدرى أي هؤلاء الجيلات أولى بحبه ، فإن لكل جسم فتنة ، ولكل محيا سحره . ولو أني وقفت على البحر لكان الأرجح أن أحب هؤلاء جميعاً ، جملة ، وأن أشتى أن أضمه كاهن في عناق واحد ، فإن الظلم قبيح . ونفسي لا تطاوعني على غمط الجمال في أية صورة من صورته . ومن يدرى ... لعل القدرة على إدراك معاني الجمال في مظاهره المختلفة هي التي وقنتي الحب ، ومنعت أن أعشق واحدة على الخصوص أجن بها . ولكنني لست واثقاً أن هذا كهذا ، وإن كان يحلولى أن أغر نفسي به . والأرجح أنها بلادة ، وإن جلدي سميك ...

ويجب أن نفرق بين النشوة العارضة ، والنشاط الصحيح وبين الإعجاب والحب ؛ وأن ننسى كل ما علق بالحب من الحواشي الخيالية التي كان الفضل فيها لمبالغة الشعراء وهذنان المرضى ، فليس الحب إلا مرضاً فالشأن فيه هو الشأن في كل